الفرح

بقلم

سعيد صبحي الصفاني

جلس محمود يرقب ابنه الصغير الذى لم يتجاوز السابعه . وهو يدب على الارض أمامه بحذائه الجديد .. يسير مختالا .. ثم يقفز فجأة فى الهواء .. ليعود ويجلس على الارض . يخلع حذاءه ويأخذ فى تقليبه بين يديه ، وعلامات الفرح والبهجة تشع من وجهه الطفولى البرىء .. بينما انهمك شقيقه الاصغر فى ارتداء البنطلون الجديد . وأمارات الاهتمام بادية على وجهه وقد انعزل تماما عما يجرى حوله .

وكان محمود سعيدا فى هذا اليوم . فقد قبض الارباح بالأمس .. ونزل لتوه الى السوق .. فاشترى كسوه للأولاد .. ولم ينس نفسه هو وزوجته .. فاشترى بنطلونا صوفيا .. وحذاء جديدا .. ولزوجته فستانا للخروج وآخر للبيت .. ولامه طرحة وجلبابا أسود وزاد من سعادته عندما سدد جميع ديونه .. واخرس الافواه التى لم تكف عن اذلاله لحظة .

وعندما اعلن الرئيس عن حكاية الارباح .. لم يصدق أنه سيقبضها بهذه السرعة .. بل وبهذه الكمية ..

لقد قبض ثلاثين جنيها .. اخذها من الصراف ثلاث ورقات حمراوات . فى ظرف ابيض عليه اسم المصنع .. وطار الى البيت ليحدث فيه فرحة هستيرية .. قفزت امراته فى الهواء .. وهى الرزينة العاقلة .. لكنها كانت كمن يتعرض لضغط هائل .. ثم رفع عنه الضغط فجأة .. ضغط الشقاء والحرمان المذل للكرامة ..

أما والدته .. فقد حمدت الله وصلت ركعتين شكرا له ..

وتقافز الأولاد حوله . وهو ممسك بالنقود فى يده . يلوح بها فى الهواء . وكأنه يطرد بها عدوا مجهولا . كان كل منهم يحاول أن يسبق الآخر الى اذن أبيه ليهمس له بما تشتهيه نفسه ..

ولم ينم ليلتها .. ولم ينم اى فرد من العائلة .. فالمبلغ كبير .. بل هو اكبر مبلغ امسكه فى حياته دفعة واحدة ..واوقعه هذا فى حيرة كبيرة .. انها

ثروة جاءت فى وقتها .. كيف ينفقها ؟ وفى اى السبل ؟

واستمع وهو شارد الى العديد من الاقتراحات ..

نجيب دولاب وسرير .. نفسنا فى راديو يا بابا .. ياخويا نسدد الدين اللى علينا الأول .. دا يوم السداد عيد .. نجيب كسوة للعيال .. دى هدومهم زى الكنافة ..

واستمر النقاش طول الليل .. وهو جالس يفكر .. ويفكر .. وامراته تفكر معه .. حتى استقرا اخيرا على سداد ديونهما أولا ..

وجرى الى صاحب البيت .. يدفع له شهرين متأخرين .. وخرج من عنده مرفوع الراس .. وشـــعور بالكرامة يملأه ويفيض عليه .

ثم ذهب الى عم حسين البقال ودفع له جنيهين وبضعة قروش .. طالما اذله الرجل الخبيث بها .

وبعدها .. ذهب الى البيت .. وهو يشعر بانه قد تخفف من حمل ثقيل كان يوشك ان يزهق انفاســه .. او ما بقى منها ..

واخذ زوجته معه الى السوق .. ليشـــتريا كســوة الاولاد .. ودخلا محلات كثيرة .. وطافا باخرى اكثر .. يتنقلون بينها فى نشوة وســعادة .. وعندما رجعا الى البيت .. محملين بالصناديق واللفائف .. هجم عليهما الاولاد وتخاطفوا اللفائف وهم يفضونها بلهفة وشوق .. ويتجاذبون ويتصايحون فى فرح وسعادة .. حتى اصبح البيت هيصة .. او شىء اشبه بالمولد ..

وجلس هو وزوجتــه .. ومعهمــا القليل الذى اشترياه لانفســهما .. يرقبان الاولاد فى رضــا وارتيــاح .. وبسمات السعادة ترفرف على الشفاه .. ولم تجد زوجته شيئا تعبر به عن سعادتها سوى كلمات قليلة غمغمت بها .

ــ حقه يابو محمد .. مين كان يصدق ربنا فضله واسع ..

واطرق زوجها مؤمنا على كلامها .. نعم ... ان الله فضله واسع واوسع مما يتصور المؤمنون المخلصون .

نقلة كبيرة يامحمود بين ماكنته وما انت عليه الآن .

لكم تمنى أن يرى وجه أشرف «بك» بعد تأميم المصنع . لقد بلغه انه اصيب بالشلل . وبعضهم قال انه افلت بجزء من ثروته وهرب الى الخارج .. فى ستين داهية .

لم ير اى عامل منه انصافا فى يوم من الايام . بل كانت كل ايامه سوداء كشعرات شاربه المصبوغ . الذى كان يرتعش ويهتز كلما غضب . وما اكثر ما كان يغضب .

المصنع اتأمم . هكذا صاحوا جميعا فى صبيحة اليوم التــالى للتأميم وهم يدخلون من باب المصنع . تستخفهم الفرحة ، ويحدوهم الامل فى مستقبل أقل اظلاما من ذلك الذى رسمه لهم هذا الرجل الاستغلالى الجشع .

ياســـلام يا جدعان .. مين كان يصدق ..

قالها صديقه عبد المولى وهو يمصمص بشفتيه ويهز رأسه وكأنه لا يصدق ماحدث .

عنده حق عبد المولى ، فلم يكن يخطر بباله أو بال واحدممن يقاسمونه الشقاء الذى يصبه على رؤوسهم هذا الرجل .. ان هذا المصنع الضخم الذى قام عـــلى اكتافهم ، ونهش لحمهم ، وضيع صحتهم سيطير من يد صاحبه ليصبح ملـــكا خالصا لهم

أجدع حاجة فى الدنيا الارباح دى .

قالها عم سليمان وهويستلم نصيبه فى الارباح من يد الصراف داخل مظروف أبيض .. مثل مظروفه الذى استلمه .

الله يجازيك يا عم ســليمان ، انت لا تنسى الجدعنة حتى فى الارباح ، لقد كنت دائما تشاغب صاحب المصنع .. وكان يخاف منك رغم كبر سنك . دبر لك المكائد فرددتها اليه ، وحاول اهانتك أمام العمال فجعلت منه أضحوكة ، حتى اضطر الى أن يتملقك ويتقرب اليك .

كيف فعلت هذا ياعم سليمان ، كان جميع العمال يتساءلون فيما بينهم عن سر صمودك أمام هذا الطاغية الذى كان يحلو له ان يقف أمام العمـــال ويصيح فيهم بصوته الجهورى .

ـ ظظ فى الحكومة .. أنا ما يهمنيش حد .

الحكومة أخذت المصنع وأعطته للعمال وهرب هو .. أو أصيب بالشلل ..

لايهم .. المهم انه ذهب عنا بعنجهيته .. وصلفه المغرور ، ووجهه الاغبر .

ونظر محمود الى وجـــه أمه المشرق بالفرحة .. فرحة الفرج .. واستجابة دعواتها التى كانت تصعدها الى السماء فى اصرار مؤمن لايعرف معنى لليأس والهبوط .

وابتسمت له وكأنها تقول : تحقق دعائى وجاء الفرج .

الفرج .. هذه الكلمة البسيطة كانت الباب السحرى الذى خرجت منه جميع همومه ومتاعبه ليخلص الى الأبد من ذل الحاجة والعوز .

وضحك محمود وهو يرقب طفلته فى محاولتها الساذجة وهى تلف قطعـــة قماش على جسدها الصغير فى هيئـــه فستان ، فتقع على الارض .. ولكنهـــا تنهض بسرعة لتكرر المحـــاولة من جديد .

جميلة هذه البنت .. لطيفـــة .. ياخسارتها فى الفقر .. ان أمها تسميها (السنيوره) . ولكن أى سنيوره .

عنده من الاولاد خمسة .. كلهم قطط صغيرة ، ليس فيهم ولد كبير يساعـده ويحمل عنه جزءا من همومه .. لامعين الا الله وحده .. هو العالم بالحال .. والحال يغنى عن السؤال كما يقولون .

لكن الحمد لله على أى حال .. لقد مررت بأيام أسود من شعر رأسك .. وقاست نفسك المعذبة من الشقاء ألوانا واشكالا لا أول لها ولا آخر .

ـ الف حمد وشـكر يابنى .. ياما

قلتلك .. فرجه قريب .. واللى يخلق عبده ما ينساه .

نعم ياامى .. لم ينسنا الله .. ولم نمت من الجوع .. ولم يتشرد العيال لكم كان المستقبل الغامض يؤرقنى .. وسيف الطرد فى أية لحظة مسلط على رقبتى يذلنى ويسلبنى آدميتى .. ويجعل منى حيوانا مذعورا .. لايعرف عن غده شيء ، ولا يرجو ان يعرف .

وتذكر ركلة أشرف بيه له فى مؤخرته وهو واقف يعمل أمام احدى الآلات .. لقد كادت الركلة أن تدفعه بين تروس الآلة . ومع ذلك لم يستطع أن يفتح فمه حتى بالاحتجاج ، فقد كان أولاده ثلاثة فى ذلك الحين ، ولو تجرأ واحتج ، لما وجد هؤلاء الاطفال قوت يومهم ، ولماتوا جوعا ، واضطر يومها أن يكظم غيظه ، ويضغط أعصابه ويبتسم فى وجهه المرتعش بالغضب .

وجلجلت ضحكة زوجته فى أذنه .. ورآها وهى تقلب فى حجرها قماش فستانها الجديد فى حبور .. ووجهها مضيء بالفرحة .

كم قاسيت معى ياحسان .. وكم تعذبت .. لم أسمع منك هذه الضحكة منذ زمن . لقد تلاشت ضحكاتك الرنانة وضاعت فى صراخ أول طفل أنجبناه ولم أسمع منك يومها حتى الشكوى .. كنت صابرة .. راضية بما قسمه الله لنا من مصير ، ترممين حياتنا فى صمت وأناة .. وتعطينا من عطفك وحنانك زادا يعيننا على احتمال ما نحن فيه من بلاء .. اصيلة والله يا احسان .. وبنت ناس صحيح .

وعاد محمود يجيل بصره فى الغرفة ..

كانت الفرحة قد خمدت .. وعم المكان صمت عميق .. وتكون الاطفال بجوار اللفائف فى سكون وعيونهم الواسعة البريئة تحملق فى الفضاء ، وكأنهما تهيم فى أحلام طفولية سعيدة .. تستمد بهجتها من واقع اللحظة التى يعيشونها .

ونعست أمه وهى جالسة فوق الحصير بينما أسندت زوجته رأسها على كفها وسرحت فى عالم آخر .

وابتسم محمود .. ابتسم فى رضا وسعادة .. وشعر بالزهو . . وهو الرجل القادر على اسعاد من يحب ، فلم يعد الآن ذلك الزوج العاجز .. يرى الحرمان فى بيته ولا يملك فى سبيل دفعه شيئا .

الوضع تغير الآن .. تغير كثيرا عن زمان .. والخير يحل محل الحرمان . . والسعادة تطرد الشقاء .. والفرحة فى العيون تشع بالبهجة والامل .

ونهض مقتربا من زوجته .. وقال لها وهو يضرب بيده على معدته برفق :

ـ الواحد جاع .. حضرى العشا .

ونظرت اليه كأنها لم تسمع ما قاله ، وغمغمت فى صوت منخفض :

ـ كنا اشترينا دولاب .. ولا سرير ينفع العيال .

وابتسم محمود وهو يجيبها :

ـ السنة الجاية ان شاء الله .. الحمد لله اللى كسينا نفسنا ، والعيال الغلابه

فقالت له فى شرود :

ـ الستر حلو يامحمود .. ربنا يديمه علينا .

وقامت لتحضر العشاء .